حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

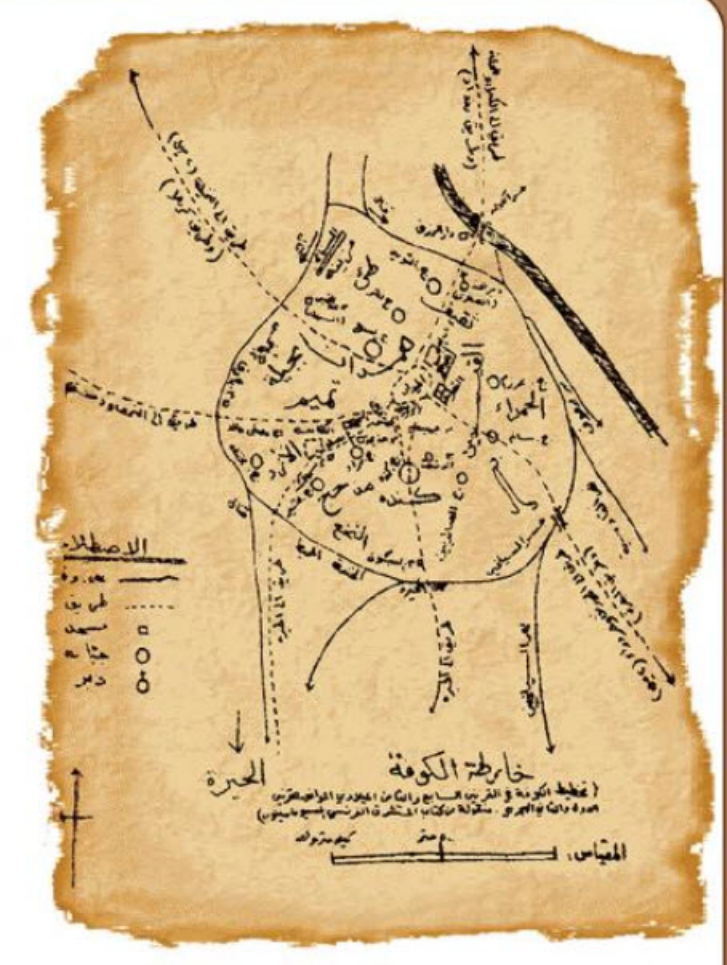

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

تأثير العوامل الجغرافية في تخطيط مدينة الكوفة

الأستاذ المساعد الدّكتور وهاب فهد الياسري

كلية الآداب- جامعة الكوفة

المقدمة:

تعد الكوفة من المدن الإسلامية المهمة الّتي أدت دوراً سياسياً واقتصادياً، إذ تم بنائها وإنشائها عام (١٧هـ)[١] بعد اتخاذ القرار العسكري بتخطيطها وبنائها وفق مخطط أساسي تم اختياره ضمن معايير تخطيطية تعكس الوعي التّخطيطي عند العرب المسلمين آنذاك، إذ كان موضعها يمتلك جميع الخصائص الجغرافية الطّبيعية منها والبشرية والّتي ساهمت مساهمة فاعلة في تمصيرها ورفد كيانها بأهمية وعمق استراتيجي للدولة الإسلامية، فقد كانت عاصمة العالم الإسلامي، فهي مركز إشعاع المعرفة تستمد مدن العالم آنذاك من مدارسها العلم ومختلف المعارف الأخرى، فازدهرت الكوفة بمدرستها اللغوية تخرج منها أصحاب الفكر والفقه والمنطق والشعر.

ولم يكن اختيار العرب المسلمين لموضع المدينة أمراً غير مدروس بل تم اختياره وفق معايير تخطيطية مهمة كان قد أدركها العرب عند اختيارهم لموضعها، وكان وراء ذلك عوامل وعناصر جغرافية لها دورها في تمصير وتخطيط مدينة الكوفة متفاعلة فيما بينها ومكملة بعضها البعض، ونستطيع أن نقسم العوامل الجغرافية هذه إلى:

- العوامل الطّبيعية.
- العوامل البشرية.

١- العوامل الطّبيعية:

يظهر تأثير العوامل الطّبيعية بما تتضمنه من العناصر الآتية:

أ- طبيعة الأرض: لطبيعة الأرض تأثير في اختيار موضع الكوفة، وكان عامل مهم في تمصيرها، فقد تميزت أرضها بوقوعها في مكان مرتفع، فتشير المصادر إنّ «ابن بقيلة قال لسعد بن أبي وقاص- أدلك على أرض ارتفعت عن البق وانحدرت عن الفلاة-»[٢].

وهذا الارتفاع أعطى للمدينة ميزة جغرافية ساعدتها على حمايتها من أخطار الفيضانات ويمنع تجمع المياه الآسنة[٣] الّتي تكون سبباً رئيساً لجلب وانتشار البعوض والحشرات وتحتوي على تربة صالحة للزراعة إذ أنّها تقع ضمن المنطقة السّهلية من العراق، وهذا يعني أنّ أراضيها تتصف بالانبساط وهي سهلية تساعد المزارعين فيها على سقي محاصيلهم باستخدام الرّي السّيحي ولا يحتاج إلى واسطة آنذاك «كالنّواعير مثلاً» إلاّ في أحيان قليلة وفي أجزاء صغيرة من المنطقة.

ب- المناخ: إنّ الاعتدال وملائمة الظّروف المناخية تأثير على اختيار موضع المدينة، فالظّروف المناخية عامل آخر يساهم في استقرار السّكان فاعتدال درجات الحرارة مثلاً ساعد سكان الكوفة على استمرار العيش والاستقرار وعدم التّضجر من السّكن فيها وهذا عامل مناخي -صحي- فتشير المصادر التّاريخية والجغرافية على أنّ العرب المسلمين كانوا يحرصون على أن يكون موضع المدينة صحياً خالياً من الحشرات نقي الهواء وفيه مناظر ترتاح له النّفس[٤] ويدخل البهجة فيها، وساعد اعتدال الظّروف المناخية في الكوفة على زراعة كثيرة من المحاصيل الزّراعية.

وساهمت الأمطار هي الأخرى في ري كثير من المزروعات كمصدر مائي آخر يضاف إلى نهر الفرات الّتي تقع عليه المدينة.

(١) البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر- فتوح البلدان طبع القاهرة، ١٩٣٢ ص٣٣٨.

(٢) الطّبري/ محمّد بن جرير/ تاريخ الأمم والملوك ص٥٩٨.

(٣) البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر/ مصدر سابق ص٢٧٦.

(٤) قدامه بن جعفر/ كتاب الخراج طبع بريل ١٣٠٦هـ

ت- الموارد المائية: امتلكت الكوفة نتيجة موضعها الّذي أشرف على نهر الفرات وبالتّحديد في الضّفة اليمنى لها أو ما يسمى بنهر العلقمي مورداً مائياً ساهم هو الآخر في إعطاء موضعها أهمية اقتصادية واجتماعية، فلا يغفل تأثير الماء ودوره في الحياة ومجالاتها المختلفة وقد ذكر الماء وتأثيره على الإنسان في القرآن الكريم ﴿**وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[1].

وعدّ توفر الماء قوة جذب لبناء المدينة وإنشائها لأنّه ساعد السّاكنين على ممارسة الزّراعة واستصلاح كثير من الأراضي وزراعتها بمختلف المحاصيل الزّراعية الّتي ساهمت في توفير فرص عمل من جانب وساعدتهم أيضاً على سد رمق عيشهم من جانب آخر.

العوامل البشرية:

وتتمثل هذه العوامل بالآتي:

أ- العامل السّياسي والاستراتيجي:

ولهما دورهما الفاعل في اتخاذ القرار بتمصير الكوفة، وكان تأثيرهما في سرعة بناء وإنشاء المدينة، فلم يكن الخليفة عمر بن الخطاب﵁ يأمن من جانب الفرس من سكنى المدن الأخرى كمدينة المدائن[2] مثلاً إذا ما أرادوا أن يتجمعوا وينقضوا على الجند العرب المسلمين وبهذا تكون بعيدة عن مخاطر الفرس.

وهنا تكمن الأهمية الإستراتيجية والجيوبولوثيكية الّتي تتمثل في إعطاء العرب المسلمين المرونة والمناورة العسكرية للسيطرة على جيوش الفرس إذا ما أرادوا الهجوم عليها، وهذا عامل عسكري مهم جداً وضع العرب المسلمين على اختيار موضع الكوفة، الأمر الّذي يساعد في تحقيق هدف القوات الإسلامية الموجودة في هذه المنطقة لكي تتجمع فصائلها في مكان أشبه بمعسكر ترحيل تجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الأعداء ثمّ تعود إليه عند تحقيق هدفها العسكري.

وهذا جانب استراتيجي مهم وفرة موضع المدينة تمثل في الحماية العسكرية الكافية لأنّها تقع على طرف الصّحراء العربية وعلى ضفاف أحد فروع نهر الفرات الأمر الّذي يشبع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب﵁ في أن لا يفصل بين المدن المقامة وبين مركز الدّولة الإسلامية في المدينة المنورة حاجز طبيعي[3].

ب- يتمتع موضع الكوفة بتوفر الموارد الاقتصادية تلك الثّروة الاقتصادية الّتي ساهمت هي الأخرى في اختيار موضعها وتمصيرها واتخاذها كمدينة مهمة للعرب المسلمين.

وقد توضح العامل الاقتصادي في وفرة المياه الجارية فهي تقع على الضّفة اليمنى من نهر الفرات الأمر الّذي ساهم في صلاحية الأرض للزراعة وهذا أعطى للعرب المسلمين استغلال الأراضي المحيطة بهم، كذلك موضعها الّذي اتسمت أرضه بأنّها سهلية وعادة المناطق السّهلية توفر للساكنين سهولة استغلالها وزراعتها والسّهولة في ري المحاصيل المزروعة عكس الأراضي غير السّهلية وهذا أعطى لموضعها أن يوفر للعرب المسلمين ممارسة الزّراعة وتوفير الغذاء لعوائلهم، وبالتّأكيد فتأثير العامل الاقتصادي على الاستقرار البشري في الكوفة كان له دوره الواضح فلو لم يكن هناك مورداً اقتصادياً يعتمد عليه العرب المسلمين في المدينة لاضمحلت المدينة وهاجر سكانها حتّى لو اختيرت لفترة وجيزة مثلاً إلاّ أنّ اختيار موضعها جاء نتيجة عوامل كما مرّ كان العامل الاقتصادي قد شكّل ضمن تلك العوامل دوراً رئيساً عمل على جذب السّكان إليه وساعد على نمو وانتعاش المدينة واستمرارها لحد الآن وهذه خاصيّة تميز بها موضع الكوفة أدركها المخططون العرب المسلمون عند البدء في اختيارها.

الاستنتاجات:

ويمكننا أن نلمس بعض الاستنتاجات الّتي ظهرت من خلال البحث وكالآتي:

١- إنّ اختيار العرب المسلمين لموضع الكوفة يدلل على مدى وعيهم التّخطيطي ومدى إدراكهم للخصائص الموضعية الّتي من شأنها وعلى ضوئها يتم بناء وإنشاء مدينة ما إذا ما أريد إنشاؤها.

٢- يتضح مما مرّ أنّ قدرة العرب المسلمين على فهم واستيعاب الجانب العسكري في اتخاذهم لمدينة الكوفة كمدينة عسكرية تحقق لهم المناورة العسكرية إذا ما تعرضوا إلى هجوم فارسي من جهة الشّرق الأمر الّذي يساعدهم على تحقيق النّصر وحسم نتائج المعركة لصالحهم.

٣- أدرك العرب المسلمون أهمية الجانب الاقتصادي فهم لم يختاروا موضعاً فقيراً بالموارد الاقتصادية فموضع الكوفة يتمتع بأرض سهلية ومورد مائي هو نهر الفرات الّذي من شأنه ري أراضي المزارعين واستزراع محاصيل زراعية مختلفة يمكن الاعتماد عليها في توفير مستلزماتهم الغذائية.

---

(١) القرآن الكريم/ سورة الأنبياء آية (٣٠).

(٢) ابن الفقيه/ أبو بكر أحمد بن محمّد الهمداني/ مختصر كتاب البلدان/ مطبعة بريل سنة ١٣٠٢هـ ص١٦٤.

(٣) الجنابي/ د. كاظم/ تخطيط مدينة الكوفة ص٣٢.

المصادر:

١- البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر/ فتوح البلدان طبع القاهرة ١٩٣٢ ص٣٣٨.
٢- الطّبري/ محمّد بن جرير/ تاريخ الأمم والملوك طبع بريل ص٥٩٨.
٣- البلاذري/ أبو الحسن أحمد بن جابر/ مصدر سابق ص٢٧٦.
٤- قدامه بن جعفر/ كتاب الخراج طبع بريل ١٣٠٦هـ ص٢٣٤.
٥- القرآن الكريم/ سورة الأنبياء آية (٣٠).
٦- ابن الفقيه/ أبو بكر أحمد بن محمّد الهمداني/ مختصر كتاب البلدان مطبعة بريل سنة ١٣٠٢هـ ص١٦٤.
٧- العميد/ د. طاهر مظفر/ تخطيط المدن العربية الإسلامية/ مطبعة جامعة بغداد/ ١٩٨٦ ص٢٣٢.
٨- الجنابي/ د. كاظم/ تخطيط مدينة الكوفة، بغداد ١٩٦٧ ص٣٢.

* * *